

## المعرفة والبناء الاجتماعي

مدخل لوجهة النظر الكلاسيكية في علم الاجتماع المعرفي(\*)

ناكيف : بتر هميلتون

عرض : محمد عبد النبي(\*\*)

تعد قضية العلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعي القضية المحورية التي يدور حولها النقاش والجدل في ذلك الفرع من فروع علم الاجتماع الذي يطلق عليه علم الاجتماع المعرفي Sociology of Knowledge وتكشف المناقشات الدائرة في هذا المجال عن وجود ثقافة مشتركة بين الفلاسفة والفكرين - على اختلاف منطلقاتهم الفكرية - بوجود رابطة ما بين المعرفة بأشكالها ومستوياتها المختلفة والاطر الاجتماعية التي توجد فيها . غير ان المتبع لهذه المناقشات سرعان ما يكشف وجود تباين بل وناقض في مواقف هؤلاء الفلاسفة والفكرين عند تحديدهم لطبيعة هذه العلاقة والعوامل الفاعلة فيها . فريق يرى المعرفة باعتبارها شيئاً أزلياً سابقاً على الوجود أو كمتغير مستقل يؤدي تطورها الى احداث تغيرات لاحقة في البناء الاجتماعي . ومن ثم نجدهم يربطون بين سيادة انماط معينة من المعرفة ( دينية أو ميتافيزيقية أو وضعية .. الخ ) وبين ظهور اشكال معينة من النظم الاجتماعية . ويطلق على هؤلاء انصار الاتجاه المثالي . وفريق آخر يرى المعرفة كمتغير تابع أو ظاهرها لاحقة Epiphenomenon أو نتاج لاضاع مادية قائمة وان وجودها وتطورها يرتبط بوجود هذه الاوضاع وتغيرها ، ويطلق على هؤلاء انصار الاتجاه المادي . وي طرح كل فريق منهما نموذجاً تحليلياً paradigm يرى انه اكثر كفاءة في تناول العلاقة القائمة بين المعرفة والبناء الاجتماعي .

ويأتي الكتاب الذي نعرض له هنا ليشر الى العديد من الاسهامات التي ابرزت معالم علم الاجتماع المعرفي ، وحددت طبيعة المناقشات الدائرة في ميدانه . ويعترف المؤلف منذ البداية ان ما قدمه في ثنايا كتابه لا يعد عرضاً شاملاً لهذه الاسهامات ؛ وانما هو مجرد جولة فكرية يلتقط خلالها أبرز هذه الاسهامات التي يرى - المؤلف - انه كان لها الاثر الاكبر في تطور المناقشات التي

\* Hamilton, P., Knowledge and Social Structure : An introduction to the classical argument in sociology of knowledge, Rutledge and Kegan Paul ; London, 1977.

(\*\*) مدرس مساعد بقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة .

تعرضت للعلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعى . وقد حاول المؤلف خلال هذه الجولة أن يشير الى المنطلق الفلسفى لكل اتجاه والمؤثرات الفكرية التى طور فى اطارها انصاره انكارهم وجوهر الاسهام الذى يضيفه كل منهم فى هذا المجال . وند جاء الكتاب متضمنا تسعة فصول وخاتمة .

يتناول الفصل الاول فلسفة التنوير Enlightenment وبدايات العنم الاجتماعى ، يشير المؤلف خلاله الى الادراك المبكر من جانب عدد من المفكرين — أمثال فيكو Vico فى مؤلفه « العلم الجديد » ومونتسكيو Montesquieu فى مؤلفه « روح القوانين » — للروابط القائمة بين المعرفة والبناء الاجتماعى بصفة عامة ، وكيف أن فلسفة التنوير قد شكلت ايدولوجية محددة جعلت بدايات العلم الاجتماعى بعامة و علم الاجتماع المعرفى بخاصة مرتبطة بنشأة النظرية الاجتماعية . ان اهمية التنوير — سواء كحركة فكرية او فترة تطور فكرى شامل — تزيد عن مجرد الاشارة اليها على انها قد شكلت بداية عنم الاجتماع و علم الاجتماع المعرفى ، ذلك لان فلاسفة التنوير قد وجهوا كل اهتمامهم — فى اطار حركة النقد العقلى التى دعو اليها — نحو التحليل العقلانى لكافة النظم الاجتماعية القائمة ، واهتموا بمناقشة القيم والانكار والمعتقدات التى كانت مسائدة فى المجتمع الاوروبى خلال تلك الفترة بصفة خاصة . وقد نبع اهتمامهم هذا من سعيهم للقضاء على الفلسفة الاخلاقية والسياسية السائدة واتامة فلسفة علمانية ذات عناصر عقلانية فى المحل الاول . وعلى الرغم من ذلك فان النتيجة لم تكن علمية تماما ، حيث احتوت روح النقد العقلى — الى درجة ما — على بعض الاحكام القيمة التى أدت الى قلب التعقل والعلم الى عالم من الآراء والانكار العامة او النظرات الفلسفية لجرى التاريخ والتطور البشرى ارتبطت بانكارهم حول التقدم والتغير والانسانية والعالمية ونمو كل ذلك بالحرية وحقوق الامراد فى تقرير تيمهم ومعتقداتهم . وعلى اى حال لقد كانت فلسفة التنوير تشكل ايدولوجية معينة تسمى الى تغير نظرة الامراد الى العالم بصفة عامة والى امور الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكومين ومصادر القانون والعدالة والنظام والحقوق والواجبات بصفة خاصة من اطار الفلسفة الاخلاقية الدينية لينظر الى كل هذه الامور فى اطار غير دينى (١) . ولذلك نجد أن العديد من فلاسفة التنوير قد اهتموا بدراسة وقائع وممارسات

(١) للوقوف على مزيد من التفصيل — باللغة العربية — حول هذا الموضوع راجع : أحمد أبوزيد ، العلوم الانسانية والصراع الايدولوجى ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد الثانى ، العدد الثانى ، ١٩٧١ . وكذلك محمود عوده : علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية ، مكتبة سعيد رافت ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

الناس اليومية ومدى انتظام حدوثها ، وظهرت في اطار ذلك الفلسفة الوضعية Positivism كاستجابة محافظة لحركة التنوير او النقد العقلي ، وسعت الى تحقيق معرفة امبريقية في اطار نموذج ادعى انصاره انه يماثل نموذج العلم الطبيعي . وقد نادى انصار هذه الفلسفة بضرورة دراسة الوقائع الاجتماعية باعتبارها اشياء خارجة عن ذات الانسان ، وأكدوا ضرورة فصل الذات الفاعلة ( الفرد او الباحث ) عن موضوع المعرفة او قضية الدراسة ، واعتبروا ذلك هو الضمان لتحقيق الموضوعية في العلم الاجتماعي . وسوف يتضح لنا من خلال مناقشة مؤلف الكتاب لآراء مختلف العلماء الذين تناولهم فيما بعد كيف ان موقف هؤلاء لم يكن سوى وهم خادع . وقد شكلت الفلسفة الوضعية الاساس لايدولوجية لتشكل الفكر البرجوازي والسعى للمحافظة على النظام وتدعيمه . .

ويتناول المؤلف الفكر الماركسي — حول العلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعي — والتطورات التي طرأت عليه في ثلاثة فصول متتالية يعرض فيها لمواقف كل من هيغل وكارس ماركس وجورج لوكاش . فيشير الى ان فلسفة هيغل Hegel تعد امتدادا للفلسفة المثالية الالمانية التي كان يمثلها كانت Kant من قبل . وكيف ان هيغل في اطار تطبيق منهجه الجدلي على المعرفة قد نظر الى المعتقدات الدينية والفلسفية باعتبارها يشكلان ( الموضوع ونقيضه ) ويتبع تفاعلها الوصول الى مركب جديد رآه هيغل في « الروح الكلية » التي تمثل الحقيقة المطلقة . وقد انقسمت الحركة الهيجلية الى ثلاث اتجاهات رئيسية فيما بعد حددها ستروس Strauss في اليمين والوسط واليسار . ولقد كان لاعمال انصار الاتجاه الاخير — اليسار — والذين عرفوا فيما بعد بالهيجليين الشبان تأثيرا واضحا على تطور الفكر الهيجلي أكثر من غيرهم . وقد طور ماركس العديد من أفكاره بينهم على الرغم من اختلافه معهم . حيث ذهب ماركس الى انه على خلاف الهيجليين الشبان قد استخدم جدل هيغل بطريقة عملية . وتناول المجتمع بوصفه واقعا تاريخيا وكبناء من العلاقات الاجتماعية الواقعية أكثر من مجرد كونه فكرة مجردة « الذات الكلية » او « الوعى الكلى » كما فعل الهيجليون الشبان ، وأكثر من كونه — أى المجتمع — واقعا حسيا ملموسا وفقا لمفهوم نيورباخ .

ولقد أوضح ماركس في تحليله للعلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعي انه في المراحل الاولى للوجود الاجتماعي كان تشكل الانكار والوعى يتم بصورة ترتبط مباشرة بالنشاط المادى ومجرى الحياة اليومية للأفراد واسلوب حياتهم ، ومن ثم كان الأفراد هم الذين يطورون أفكارهم ومفاهيمهم . ولم يكن وعيهم أكثر من مجرد ادراكهم للوجود . ومع تطور الحياة المادية وانفصال العمل

الفكرى أو العتلى عن العمل اليدوى ، طورت الفئة المسيطرة مجموعة من الآراء والانكار والقيم التى تعبر عن اهتماماتها ومصالحها وسعت الى فرضها على باقى الافراد اى شكلت لنفسها ايدولوجية خاصة بها . وتعد هذه الفكرة اساس النموذج التحليلى لعلم الاجتماع المعرفى لدى ماركس والتى تطورت عنها الافكار الماركسية حول العلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعى . وهكذا يمكن القول ان ماركس رآى المعرفة والوعى كانعكاس للواقع الاجتماعى التاريخى الذى يعيشه الافراد . وربط محتوى المعرفة وطرق تشكلها ببناء القوة السائد فى المجتمع . ويقرر ان الطبقة التى تسيطر على القوى المادية فى المجتمع تمتد سيطرتها ايضا الى مجال المعرفة والثقافة تنظم وتشكل افكار عصرها . وذهب الى ان الفكر والمعرفة لا يمكن ان يتغير من خلال طرق عقبيه وانما من خلال تحول الازواض المادية التى يوجد فى اطارها . ولذلك رأى الثورة وليس انتغير العتلى هى القوة المحركة للتاريخ ، وان هذه الثورة مستحثة الحدوث بدون نوافر كل من الشروط الموضوعية ( المادية ) والذاتية ( المعرفة العقلية ) اللازمة لاتجاحها . بمعنى لابد ان يكون هناك طبقة ثورية - البروليتاريا فى المجتمع الراسمالي - وان يكون لدى افرادها وعى بفكرة الثورة .

وهكذا يرى ماركس ان الرابطة بين الفكر والوجود - او المعرفة والبناء الاجتماعى - ليست رابطة بين عنصرين منعزلين تماما ، وانما هى رابطة تجمع بين عنصرين بينهما علاقة تآثر متبادلة ، غير ان بعض الماركسيين قد طوروا انكار ماركس فى اتجاه مآدى بحث يقوم على حتمية متطرفة ترى المعرفة كانعكاس ميكانيكى او مباشر للحياة المادية ، الامر الذى ادى الى عجز تحليلاتهم عن تقديم تفسيرات مقنعة لسيادة اشكال خاصة من الوعى وانماط معينة من المعرفة لدى بعض الطبقات الاجتماعية وفى تكوينات اجتماعية محددة تتناقض مع الواقع المادى الذى يعيشونه .

ويتناول الفصل الثالث اسهامات جورج لوكاشس Lukacs فى تطوير الانكار الماركسية حول العلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعى وذلك فى مؤلفه الذائع السبب « التاريخ والوعى الطبقي » History and Class-consciousness ويبدأ الفصل بالاشارة الى الاصول الفكرية التى طور فى اطارها لوكاشس افكاره فيشير المؤلف الى تأثيره بالفكر كل من ماكس فيبر وجورج زيمل وافكار الكاننية الحديثة فى ألمانيا بصفة عامة التى تهتم بالفهم الداخلى او التأويل الذاتى اكثر من اهتمامها بالنماذج السببية . بالاضافة الى تأثيره بماركس ويشير المؤلف الى ان كتاب « التاريخ والوعى الطبقي » يتضمن ثلاثة جوانب هامة . يتضمن الجانب الاول مفهوم الوعى الطبقي الذى طرره لوكاشس من قراءاته لهيجل وتعرض

بصفة خاصة لفكرة دلثي Diltthey — وهو هيجل محدث — حول علم الروح science of "spirit" ومفهومة — دلثي — عن «روح الشعب» spirit of the People ويتضمن الجانب الثانى من الكتاب وهو الجانب الذى يعكس تأثر لوكاش بأفكار فيبر وزيميل تأكيدا لضرورة فهم الظواهر الاجتماعية فى إطار منهج أو أسلوب التأويل والفهم الذاتى . وقد عالج لوكاش فى هذا الجزء وعى البروليتاريا فى ضوء فهمها للواقع بدلا من تفسير ذلك الوعى أورده للاطار الاجتماعى الذى توجد فيه . أما الجانب الثالث والذى يعكس تأثر لوكاش بكارل ماركس فهو النموذج التحليلى لماركس أو المنهج الجدلى الذى صاغ فى إطار لوكاش أفكاره .

ان ما قدمه لوكاش — باختصار — هو إعادة تقديم فكر ماركس كما يرى فى عيني هيجل مع تطعيمها بعناصر أخرى مستمدة من الفهم الفيبرى للراسمالية الرشيدة .

ويتناول الفصل الرابع أفكار مدرسة فرانكفورت فى ألمانيا ويكشف المؤلف عن تأثيرها بالانكار الماركسية الهيجلية كما ظهرت فى أعمال لوكاش ، كما يتضمن الفصل ذاته أفكار جولدمان Goldman فى فرنسا وسعيه لتطوير الكثير من الجوانب النظرية فى فكر لوكاش فى اتجاه انساني وتأسيسه لما يعرف باسم علم اجتماع الادب Sociology of Literature ويشترك جولدمان مع مدرسة فرانكفورت فى رفضها للمعرفة الوضعية ولذا كان لأعمالها آثار واضحة على تطور علم الاجتماع النقدي . ولقد اعتبر جولدمان أن علم الاجتماع فى صورته غير الماركسية قد أصبح خادما للراسمالية ساعيا نحو تدعيم الاهداف التى تسعى اليها ، وهو الامر الذى جعل بحوثه ودراساته تتجه نحو الكشف عن المشكلات والقضايا الميكروسوسولوجية Micro-Sociology وتفتقد بالتالى القدرة على النظرة الكلية ورؤية التغيرات الكيفية للابنية الاجتماعية والابعاد التاريخية للحقائق الاجتماعية . وقد اعتبر جولدمان علم الاجتماع المعرفى الاساس الذى يمكن من خلاله نقد التيار الوضعى فى علم الاجتماع ، طالما انه — اى علم الاجتماع المعرفى — يسعى الى تحليل الاسس الواقعية للمراحل السوسولوجية . وفى اعتقاد جولدمان ان علم الاجتماع المعرفى يتضمن شكلا من اشكال علم الاجتماع الفلسفى التاريخى الانسانى فى مقابل علم الاجتماع الوضعى . واهتم جولدمان بتحليل الادب والفن ، وحاول تعريف الطبقة فى ضوء الوعى ورأى ان اساس الفلسفة والادب والفن يكمن فى الطبقة وعلاقتها بالمجتمع . وان الحد الاقصى للوعى الممكن Potential consciousness يشكل نظرات للعالم يمكن التعبير عنها فى مجال الدين والفلسفة والفن وهو جماع ما اطلق عليه الايديولوجية .

ويتناول الفصل الخامس اسهامات ماكس شيلر Max Scheler فيوضي: المؤلف انه على الرغم من انه يشترك مع لوكانس ومدرسة فرانكفورت وجولدمان في وجهة نظرهم حول دور العلم النوضي كخادم للراسمالية والمجتمع الغربي ، الا انه قد تميز عنهم بانه نظر الى علم الاجتماع المعرفي كادات سياسية يمين أن يقدم أساسا للممارسة السياسية ، وكسلوب يساعد في حل الصراعات الايديولوجية عن طريق تمكينه كل طرف من أطراف الصراع من معرفة أوجه القصور في وجهة نظره . واعتبر شيلر الوضعية فلسفة احادية تعبر عن مسلك البرجوازية ، كما اعتبر الماركسية فلسفة احادية ايضا ، الا انه اعتبرها أكثر التحليلات الاحادية دقة وصدقا في الكشف عن التوترات القائمة في المجتمع الراسمالي والمعرفة التي تكتسبها كل من الطبقات الاجتماعية حول البناء الاجتماعي .

وتكشف آراء شيلر في محاولته التوفيق بين الماركسية والمثالية عن تبنية لموقف فينو مينولوجي حاول من خلاله أن يفسر ارتباط العلاقات الاستيمولوجية ( المعرفية ) التي تربط بين البشر بالاطار الكوني الذي يحيط بهم بما يشمل عليه من عوامل مادية وفكرية على حد سواء .

ويتناول الفصل السادس جماع آراء ماكس فيبر Weber ويكشف عن جوهر اسهامه ، ويبدأ الفصل بالإشارة الى أن فيبر قد تأثر بالكاتنية الحديثة عند ريكرت والنسبية التاريخية عند دلتى بالإضافة الى أفكار ماركس ، فقد عارض فيبر النزعة الكلية holistic واعتبر التردد وحدة التحليل أو الدراسة وراى أن سلوك الافراد يمكن فهمه في اطار ما أطلق عليه علم الاجتماع التأويبي interpretive sociology من خلال فكرة الفهم الذاتي Verstehen التي أشار اليها دلتى بل واعتبرها فيبر الاسلوب الوحيد الذي يتيح الكشف عن معاني السلوك ، كما قبل بعض تفسيرات ماركس لبعض المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية .

وعلى الرغم من أن فيبر قد أضفى أهمية كبيرة على دور الفكر والمعرفة في تضر البناء الاجتماعي ، الا انه لم يقدم تحليلا احاديا للعلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعي ، وأكد على اهمية الكشف عن ارتباط مجموعة كبيرة من العوامل في اي موقف أميريقي . ويرى المؤلف أن السبب في اضمفاء هذه الاهمية على الافكار والمعرفة من جانب فيبر يرجع الى اهتمامه بعملية الرشد في المجتمع الراسمالي الذي كرس كل اعمانه لدراستها .

ويتناول الفصل السابع موقف دور كايم Durkheim من العلاقة بين الفكر والبناء الاجتماعي ويعرض لذلك من خلال كتابه « الصور الاولية للحياة

الدينية « حيث يحوى نظرية دوركايم فى المعرفة ، وتقوم هذه النظرية على أساس أن المعرفة كظاهرة سوسولوجية لا يمكن تفسيرها الا بظواهر جمعية . واعتبر دوركايم الدين الصورة المرفية الأولى التى تطورت منها كل أشكال المعرفة ، وأن الدين ما هو الا تجسيد رمزى للمجتمع ، وتعبير معرفى عن العلاقة بين التنظيم الاجتماعى والبيئة الطبيعية التى يوجد فيها ، واعتبر الدبانات البدائية — الصورة الأولى للدين — كتجسيد حى يكشف عن هذه العلاقة ( ولعل ذلك يفسر لنا سر اهتمامه بدراسة الصور الأولى للديانة الدينية والتوتمية على وجه الخصوص ) .

أما مناهج دوركايم فى انتساب وتحصيل المعرفة عن الواقع والتى حددها فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » فتؤكد ضرورة معالجة الواقع الاجتماعى كاشياء ويطلب بفصل الذات عن موضوع الدراسة وهو الأمر الذى يكشف عن اتجاهه وضعى خالص يؤكد النزعة العلمية المرفية التى أصبحت موضوعاً للنتد من جانب علم الاجتماع المرفى .

ويتناول الفصل الثامن اسهامات كارل مانهايم *Karl Mannheim* باعتباره امتداداً لكل من فيبر وماركس، والقضية الأساسية التى يقوم عليها تصور مانهايم للعلاقة بين الفكر والبناء الاجتماعى تقوم على أساس أن الأفكار ليست نتاجاً للحقيقة الكلية بل انها ترتبط ارتباطاً مائماً بالاطر الاجتماعية التى توجد فيها . ومن ثم رأى أن الفكر يختلف باختلاف هذه الاطر الاجتماعية . واتجهت أعمال مانهايم للكشف عن الأساس الاجتماعى للأفكار والايديولوجيات وركز على دور جماعات الصفوه حيث رآها هى المتحكمة فى كل شىء وهى التى تقرر مكونات المعرفة وهى التى تحدد الاطر العام للصراع بين الايديولوجيا واليوتوبيا فى الممارسة السياسية بين مختلف الصفوات الفكرية التى تمثل بدورها مختلف الشرائع الاجتماعية . ولذلك رأى مانهايم أن علم الاجتماع المرفى ذا هدف مزدوج ، فهو من ناحية منهج للبحث عن العلاقة بين الفكر والبناء الاجتماعى وهو فى الوقت نفسه أداة سياسية للكشف عن الأساس السياسية والمصالح الفئوية المرتبطة بالأفكار الايديولوجية المختلفة .

ويعرض الفصل التاسع والآخر للاتجاهات السوسيوفينومينولوجية فى علم اجتماع المعرفة (١) . فيشير المؤلف خلاله الى أصول هذه الاتجاهات فى أعمال

(١) للوقوف على مزيد من التفصيل — كتب بالعربية — حول مضمون أفكار انصار هذه الاتجاهات ومدى اسهامها فى تطور النظرية الاجتماعية راجع : أحمد زايد ، الاتجاهات النقدية فى علم الاجتماع الغربى . دراسة لمشكلة النظام ، تحت الطبع ، دار المعارف ، القاهرة . وكذلك سمير نعيم ، النظرية فى علم الاجتماع دراسة نقدية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

هوسرل والفرد شوتز وكيف تطورت هذه الاتجاهات فيما بعد في أعمال بيرجر ولاكمان اللذان اكدا أنه لا يمكن فهم الواقع الا من خلال الوقوف على معرفة الافراد الذين يعيشونه .

ثم يتناول الفصل ايضا التطور الذى لحق بهذه الاتجاهات على يد جورج هربرت ميد وتاكيدته على ان اكتساب المعرفة بالواقع يتم من خلال عملية التفاعل الرمزي في المجتمع . ويشير المؤلف لكيفية تجمع هذه الاتجاهات فيما يطلق عليه الانثوميثودولوجى Ethnomethodology وهو اتجاه يسعى للكشف عن القواعد التى تنظم السلوك كما تتبدى في اسلوب الحياة اليومية للافراد .

تلك باختصار هى اهم الافكار الواردة في فصول هذا الكتاب وفي ختام عرضنا لها ترى هل سيتيح علم الاجتماع المعرفى تخليص علم الاجتماع من مضامينه الايديولوجية من خلال الكشف عن انتماءاته الفكرية والسياسية ؟ أم سيظل علم الاجتماع علما ايديولوجيا يستخدم كسلاح من جانب مختلف الاطراف المتصارعة ؟ وهل يفلح علم الاجتماع المعرفى في تقديم أسس معرفية للممارسات السياسية وحل الصراعات الايديولوجية ؟ أم أنه سوف يستخدم كسلاح لقمع هذه الصراعات ؟ ان ذلك ما سوف تكشف عنه التطورات المتتلة في هذا الفرع من فروع علم الاجتماع .